

الاختيارات الموضوعاتية "السياسية والدينية" في مدونات الشعر الشعبي المغربي

Thematic "political and religious" choices in Maghreb popular poetry blogs

د. عزالدين بن حليمة¹

جامعة الجزائر 02 azzedinelettre10@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023-03-31 تاريخ القبول: 2023-05-04 تاريخ النشر: 2023-06-08

ملخص البحث

تهدف هذه الورقة البحثية إلى كشف أهم الموضوعات والقضايا السياسية والدينية التي غني بها الشعر الشعبي المغربي في مختلف مدوناته الشعرية؛ وقد توصلت الدراسة إلى أن هذا الشعر قد أثر كثيراً في الثقافة الشعبية المغربية بسبب تنوع إختياراته الموضوعاتية وبساطة لغته عموماً، كما عبّر عن اهتمامات مجتمعاتها وواقعها الاجتماعي والديني والسياسي دون تكلف في المعاني ودون تقيّد بالقوافي والأوزان الشعرية الخليلية.

كلمات مفتاحية:

مفهوم الشعر الشعبي، الثقافة الشعبية المغربية، الاختيارات الموضوعاتية السياسية والدينية.

Abstract:

This research paper aims to reveal the most important topics and political and religious issues with which Maghreb folk poetry was concerned in its various poetic blogs; Al -Darasah has found that this poetry has greatly evacuated the Maghreb popularity due to the diversity of its places of place and simply its general language, as he expressed the interests of its summits and its social incidence, the one who is in the face of the people.

Key words:

The concept of popular poetry, Maghreb popular culture, thematic choices.

1. مقدمة:

* المؤلف المرسل: د. عزالدين بن حليمة

يُعدّ الشعر الشعبي شكلا من أشكال الأدب الشعبي ومظاهره، وإبداعا فنيا شفويا "يُطلق على كلّ كلام منظوم من بيئة شعبية بلهجة عامية تضمّنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب، ويتوارثه أفراد جيل بعد جيل عن طريق المشافهة، وقائله قد يكون أميا، وقد يكون متعلما بصورة أو بأخرى مثل المتلقي أيضا"¹.

وقد اختلف الباحثون والدارسون في التأريخ لنشأة الشعر الشعبي المغربي ووجوده من منطقة إلى أخرى، ويعود سبب ذلك كون أنّ معظمه كان شفاهيا من جهة، "ولإهمال الذي لحق به من طرف المؤرخين الذين سكتوا عن ذكره رغم معاشتهم لفترات ظهوره"² من جهة أخرى باستثناء القليل منهم، وعلى رأسهم ابن خلدون الذي أشار في مقدّمته عن واضع الشعر الملحون -أي الشعر الشعبي- "هو رجل من أهل الأندلس، كان يُعرف بـ "ابن عميرة" الذي نزل مدينة فاس، وعنه نقل الناس هذا الأسلوب في نظم الشعر بدون تكلف، بالإضافة إلى "ابن قرمان الأندلسي الرّجال (555هـ-1660م) الذي غمر الأدب الأندلسي بأرجاله، وشعره الملحون، وأسرّ بإبداعه هذا ما كان متعسرا على العامة، فأخذ كلّ واحد منهم ينظّم كلماته شعرا على هذا النمط الجديد بلهجته مثل: "الكان وكان" و"الموالية" و"السلسلة" و"الدوييت" و"المستطيل" و"المنسرد" و"المطرب"³.

ولعلّ ضُعب الثقافة العربيّة عامّة في عصور الانحطاط، وفي عصر الأتراك، ثمّ في عهد الاحتلال والاستعمار الأوروبي للدول العربيّة وغيرها فيما بعد ساعد على انتشار الشعر الشعبي بمختلف موضوعاته وقضاياها وأغراضه في مختلف الأقطار العربيّة؛ ومنها المغرب العربي الكبير الذي ظهر فيه شعراء شعبيون كثيرون أنشدوا قصائد ملحونة وموشّحات وأزجالا كثيرة، كان لها تأثير كبير على الثقافة الشعبيّة في المنطقة المغربيّة عمومًا، وهنا قد نتساءل عن أهم القضايا والاختيارات الموضوعاتية التي اهتمّ بها الشعراء الشعبيّون المغاربة في مختلف قصائدهم التي جادت بها قرائهم،

وهذا ما سنجتهد في كشفه مع التمثيل في هذه الدراسة الموجزة، وقبل هذا ارتأينا أن نحدد مفهوم الشعر الشعبي أولاً:

2- مفهوم الشعر الشعبي:

وهو شعر - كما هو معروف عنه - لا يتقيد بالقواعد الصارمة للشعر العمودي من وزن وقافية وروي... إلخ، فهو "يستمد كلماته، وألفاظه، وطريقة أدائه، ومعانيه، وأسلوبه، من الحياة العامة والشعبية، حيث يكتب بكلمات من اللهجة المحكية بين الناس، ولا يستخدم الفصحى، لكنه يختار أجمل التوصيفات التي يقولها الناس في كلامهم ولهجتهم المحكية، فعندما نتحدث عن الشعر المحكي لا نقصد بذلك الطريقة العبتية بالنظم؛ بل البساطة والقوة التي لا تتأتى لأي أحد، فقول الشعر الشعبي يعد مهارة جامعة؛ والذين يكتبونه يُعبرون عن أصالة الحارات الشعبية، وأزقة البيوت، وطبيعة الحياة، وصعوبتها في موضع، وجمالها وسهولتها في موضع آخر"⁴، حيث يجتهد الشاعر في اختيار أعذب الألفاظ وأكثرها عفوية وتناسبا مع موضوع القصيدة وطبيعة المتلقي، بعيدا عن التكلف والتراكيب اللغوية المعقدة.

3- الاختيارات الموضوعاتية السياسية في الشعر الشعبي المغربي:

تعد الموضوعات السياسية الوطنية من أهم ما نظم فيه الشعراء الشعبيون المغاربة، فقد "عرفت منطقة شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشارا واسعا للشعر الشعبي أو ما يُعرف باسم "الملحون"، وقد نقلت مئات القصائد بطولات المقاومة الشعبية ضد المستعمر، وهو ما أهّل هذا النمط الأدبي الشعبي في فترة لاحقة لأن يلعب وظيفة التوثيق والتأريخ الشعبي لفترة مهمة من تاريخ المنطقة المغربية وإنقاذ بعض فصوله من تجاهل التاريخ الرسمي وإخراج عشرات الأبطال المغومرين من غياهب النسيان."⁵

وقد تمحورت الموضوعات السياسية في الشعر الشعبي المغربي - في نظرنا - في محورين

أساسيين هما:

3 - 1- الإشادة والتغني بالمقاومات الشعبية ضدّ المستعمر:

لم يكن الشعراء الشعبويون المغاربة بمعزل عن الواقع السياسي الذي كان يشهده المجتمع المغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، حينما كان تحت وطأة المستعمر الفرنسي، حيث كان للشعر الشعبي دور هام في نقل تفاصيل المعارك التي اندلعت بين المقاومين وجيش الاحتلال الفرنسي، وتوثيق بطولات المجاهدين والثوار ضدّ المستعمر، وخاصة التونسيون والجزائريون منهم أمثال: محمد بن قيطون، بلقاسم بن زغادة، عبد الرحمن الكافي، أحمد البرغوثي... وغيرهم من الشعراء.

وخير مثال على توثيق هذه البطولات "ما نُقِل في كتاب" المقاومة الجزائرية في شعر الملحون" لـ "جلول أمقران الحفناوي" الذي نقل العديد من القصائد الشعبية المهمة التي تغنت بالمقاومة الشعبية ضدّ المستعمر الفرنسي، ودورها المهم في التوثيق لبطولات المجاهدين في أنحاء الجزائر، وكيف لعبت هذه القصائد دورا كبيرا في تأجيج شرارة الثورة والكفاح ضدّ المستعمر الفرنسي" ⁶، وجمع الجماهير (في الأسواق الشعبية خاصة) وشحنهم بالقيم الوطنية، وتحريضهم على مقاومة المستعمر والجهاد في سبيل الوطن واسترجاع السيادة والحرية.

ومن أمثلة الشعراء الشعبيين أيضا:

- الشاعر التونسي "عبد الرحمن الكافي" الذي هجا المستعمر الفرنسي وسخر من حُكّام تونس في أغلب قصائده، وقد شهدت "الملزومة الكافية" انتشارا واسعا على حساب بقية قصائده الأخرى.

- ونجد أيضا الشاعر أحمد البرغوثي المنحدر من الجنوب التونسي من قبيلة البرغوثية من ولاية قبلي، بقصائده الزافضة لنتائج المؤتمر الأفخارستي المنعقد في ثلاثينات القرن الماضي، الذي أقامه المستعمر الفرنسي مع الكنيسة الأفخارستية بتونس بمناسبة الذكرى الخمسين على احتلال الجزائر" ⁷.

3 - 2- التغني بأمجاد الثورات التحريرية الكبرى وقوتها:

ونحن نتحدث عن موضوعات الشعر الشعبي السياسي -إن صحّ التعبير- لا يمكن أن نغفل عن دور الشعراء الشعبيين في تخليد بطولات وأحداث الثورات التحريرية الكبرى في المنطقة المغاربية وخاصة الثورة التحريرية الجزائرية، حيث "انضمّ شعراء الملحون أثناء اندلاع المقاومة المسلحة في الجزائر وتونس إلى الثورة، وعُدّت قصائدهم سلاحاً معنوياً كبيراً نهض بروح مقاومة المستعمر الفرنسي، ومن أمثلة شعرهم في هذا الصدد قول الشاعر الجزائري "بن علي بلال" الذي تغنى بأمجاد الثورة الجزائرية التي اندلعت في شهر نوفمبر 1954م، يقول الشاعر:

هذا نوفمبر شهر المعجزات
صنّعه أولاد الدّزايّر في الثورة
رسموه أبطال باش يبقى ذكريات
خلاوة الأولين للآلّي يقرأ
تسعمائة فوق الألف في القرن اللي فات
سأل وسقسي نعيد لك كيفاه صرا
الرّبعة وخمسين فيه الحرب بدات
لا راحة ولا رقّاد حتّى النصر⁸

وفي هذا الصدد يقول الشاعر الجزائري المعاصر "الميلود علي عريوة" في قصيدة "نوفمبر وثورة"

بمناسبة الاحتفال بذكرى اندلاع ثورة نوفمبر الخالدة:

نبدا بسم الله، والله أكبر وصلاة على حمّد حبيب القوم
في ربّعة وخمسين أول نوفمبر والمجاهد كان على وطن ملزوم
قاموا أهل نيف وزجال ميمر ويصبر في خوه ذا الوقت لا يدوم
كانوا متفّقين والقلب محير والخبيثة قايمة حرب محتوم

بنواع التخريب في الشعب دمرت ما تركت شيوخ حتى لي مفطوم
وتحزمت أبطال تخطط ودبر جبل لوراس كان في الخطة مرسوم
قاموا بالجهاد دبوس وخنجر ابطال الجهاد عزلي مضوم
هاذا هما ابطال لي بيهم نفخر كانوا متحدين والموقف مفهوم
تحرير البلاد والعلم يظهر بالاتحاد يكون عدونا مهزوم
سبع سنين ونص والغيم مكدر بان لفجر ولاح نذكر ذاك اليوم
في ثنين وستين الوضع تغير خمسة جويلية كان الشعب ملموم
بزغارد ونقول تحيا الجزائر تحدث الناس بالشيء المكتوم
وكلامي صحيح منيشي حاضر ذاك الوقت صغير ومفطوم
وجكالي بطل في الوجه مكشر شاكي من الهموم والقلب مقصوم
سبقوه الدمعات قبل ما يهدر وتفكر كي كان من وطن محروم
وخبّرني من كان لثورة فجر ثنين وعشرين قاموا بالملزوم
وتقسموا لفلكارما تسبب تخير عهد كان متين حلفوا بالقيوم
حلفوا باللي نازلة واللي تنحر صف المجاهدين يكونش مهضوم
ضحينا برجال والشهيد الحرّ كيمثل عميروش في تاريخ اليوم
كاين من الابطال عندي ما نذكر كي مثل الحواس نفاجي به هموم
شعباني صغير في الضرب يدور الطيب الصحري واللّفة بسموم
بن بولعيد كان لسلّاح يدبر وشهرا من مالو من كلش مقيم
والتاريخ طويل والعدد ياسر وعذربي بلاك عني زيد تلووم
كاين من شهيد ما عندوش خبر وكاين من حرقوه لحمو سار حموم

كاين لي مزال حقوا مودر وكاين لي موجود في الخندق مردوم

نختم قولي بيه والله أكبر والشاعر ميلود صاحب المنظوم⁹

ونلاحظ أن الشاعر قد أولى أهمية للشهر الذي اندلعت فيه الثورة التحريرية في بداية قصيدته هذه؛ حيث قدّم نوفمبر عن الثورة انطلاقاً من العنوان، وهذا دليل على منزلة وأهمية شهر نوفمبر عنده وعند الشعب الجزائري، فهو الشهر الذي يذكّره بحجم التضحيات التي بذلها الآباء والأجداد من أجل تحرير هذا الوطن العزيز، ثم استهلّ الشاعر قصيدته بالبسملة والتكبير والصلاة على رسول الله، وهي مقدمة عادة ما تردّ في القصائد الشعرية الشعبية، ليخوض فيما بعد في تفاصيل موضوعه مؤكّداً على فكرة الجهاد والتضحية والدفاع عن الوطن، ليختم في الأخير موقّفاً بذكر اسمه في نهاية قصيدته.

وتعتبر قصيدة "الخمسة إلّي لحقوا بالجزّة" إحدى أشهر قصائد الشعر الشعبي التونسي التي "خلدت ملحمة وطنية قادها البطل التونسي محمد الدغاجي، حيث اعتبر البعض أنّ هذه القصيدة من التراث التونسي، بعد أن غناها الفنان الشعبي" إسماعيل الخطّاب "فيما نسبت بعض المصادر التاريخية هذه القصيدة للشاعر الشعبي "علي الحمروني" المنحدر من منطقة عرّام بمارث من ولاية قابس بالجنوب التونسي"¹⁰.

4- الاختيارات الموضوعاتية الدينية في الشعر الشعبي المغربي:

من أهم الموضوعات الدينية التي خاض فيها الشعراء الشعبيون المغاربة نذكر ما يلي:

4 - 1- الحبّ الإلهي:

لعلّ أهمّ الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الشعبيون المغاربة؛ وخاصة المتصوّفون منهم، هو ما يتعلّق بالحبّ الإلهي؛ الذي يتنوع بتنوع تجاربهم ونظرتهم له؛ فالحبّة عندهم وعند المتصوّفة خاصّة لا يجوز النظر إليها على أنّها غرض واحد فحسب، بل تتسع لتشمل العديد من الموضوعات المتعلقة بها... "فهناك علاقة الحبّة والشوق إلى المحبوب، وهناك علاقة المحبّ وابتلاء المحبوب، وهناك علاقة

ترتبط بالمقام الذي يصير إليه الصوفي، فالمحب الذي يرقى في المقامات الصوفية يرى المحبوب بنظرة تختلف باختلاف المقام الذي يصير إليه.¹¹

ومن أشهر ما يُقال تقليدا على ألسنة الصوفية مثلا: شعر حسين بن منصور الحلاج أحد أهم متصوفة القرن الثالث الهجري الذين لم يُوفهم التاريخ حقهم في الشهرة، والذي بقي بعض شعره مُتداولًا إلى غاية عصرنا هذا، مع تغيير حركات وسكنات شعره تماشيا مع مُتطلبات اللغة العامية المتميزة بكثرة تسكين الحروف وحذف بعضها أو زيادة حروف أخرى لها، فأصبح يُتداول عنه مثل قوله الآتي:

أَحْرَفُ أَرْبَعُ بِهَا هَامَ قَلْبِي وَتَلَأَشْتُ بِهَا هُمُومِي وَفَكْرِي
أَلِفُ أَلَفَ الْخَلَائِقُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ فَلَامٌ عَلَى السَّلَامَةِ تَجْرِي
ثُمَّ لَامٌ زِيَادَةٌ فِي الْمُعَالِي ثُمَّ هَاءٌ بِهَا نَهِيمٌ وَنَذْرِي

ومن قصائد الحب الإلهي أيضا نذكر على سبيل المثال لا الحصر قصيدة "بسم الله بها نمجد"، التي يقول الشاعر في مطلعها:

بِسْمِ اللَّهِ بِهَا نَمَجِّدُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا خَلَاها فِي قَلْبِي¹²

حيث بيّن فيها الشاعر الجزائري "سعيد بوعزة"¹³ مدى تمجيده لكلمة "بسم الله"، مُصليا على النبي صلى الله عليه وسلم، مبينا مدى حلاوة كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) في قلبه، ومدى حُبّه لها.

4 - 2- مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته والخلفاء الراشدين:

الحديث عن مدح رسول الله يعني الحديث عما يُعرف بالمديح النبوي الذي "يُجمع الأدباء والنقاد أن ظهوره مُرتبطٌ بالشعر الصوفي مع ابن الفارض"¹⁴ وغيره من المتصوفين، ولم ينتعش، ولم يزدهر إلا مع الشعراء المتأخرين من أمثال البوصيري¹⁵ في القرن السابع الهجري، وهو كما يعرفه

الدكتور زكي مبارك: "فنّ من فنون الشعر التي أذاعها تصوّف، ولون من ألوان التعبير عن العواطف الدنيّة، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنّها لا تصدر إلّا عن قلوب مُفعمة بالصدق والإخلاص"¹⁶.

ويعدّ مدح الرسول أيضا من بين أهمّ الموضوعات التي غني بها الشعر الشّعبيّ المغاربي (بعد الحبّ الإلهي) التي نظم فيها الشعراء الشّعبيّون شعرا كثيرا (لا يقلّ أهميّة وجودة عما نُظم باللغة الفصيحة في مدح رسول الله والثناء عليه)، سلّط فيه الشعراء الضّوء على صفاته صلّى الله عليه وسلّم وأخلاقه ومولده ومعجزاته وذكر سيرته، ومدح صحابته وآل بيته... إلخ.

ومن أشهر الشعراء الشّعبيّين الذين تميّزوا في هذا المجال نذكر على سبيل المثال لا الحصر مثلا: ابن تريكّي، وابن مسايب، وابن خلوف... وغيرهم كثيرون، ومن أمثلة ما نُظم في هذا الشأن نذكر مثلا ما قالها ابن مسايب (وشعره كثير لا يمكننا أن نشير إليه كلّ) في مدح رسول الله في مطلع قصيدة "بدر الدّجى عسّاس" واصفا إياه ببدر البدر وسيّد البشر مبيّنا مدى حبّه وعشقه له، يقول الشّاعر:

حُبِّي مِنْ نَهْوَاهُ بَدَرَ الْبَدُورُ

سُبْحَانَ مَنْ عَلَاهُ فَاقَ كُلُّ نُورٍ

عَزَّو الْكَرِيمَ وَ عَظَاهُ زُهُورُ الصُّدُورِ

مُنُو زَهَاتُ النَّاسِ قَطْبُ الْفَلَاحِ

يَخْلَى الْغُودُ وَالْكَاسُ بَيْنَ الْمَلَاخِ

زَهْوِي وَ عَشْقِي فِيهِ سَيِّدُ الْبَشَرِ¹⁷

وإضافة إلى مدح رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، مدح الشعراء الشّعبيّون المغاربة رسول الله والمقرّبين منه (خاصة أبو بكر الصّديق، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطّاب، وعلي بن أبي طالب)، وآل بيته ذاكرين خصالهم ومزاياهم ومكانتهم في الدّنيا والآخرة وجهادهم من أجل نصرة دين الله تعالى، ومن أمثلة ما نُظم عنهم على سبيل المثال لا الحصر قول الشّاعر:

بُوبَكَرُ وَاعْمَرُ بِأَفْعَالِهِ هُمْ قَائِمِينَ عَثْمَانُ وَعَلِيُّ يُوسُفُ التَّيَارُ
بَاعُوا نَفْسَهُمْ بِالْجَنَّةِ مَتَمَتِعِينَ وَشَرَاوُ قُصُورَ سَعْدٍ فِي ذِيكَ الدَّارِ¹⁸

وفي وصف "فاطمة الزهراء" (رضي الله عنها) رمز المرأة المؤمنة والعفيفة والطاهرة؛ التي نالت
الحظ الأكبر من المدح كونها ابنة رسول الله، وأم الحسن والحسين، يقول الشاعر "محمد بن
قيطون"¹⁹ في حقها:

اسْمُ اللَّهِ جَبَتْ الْقَوْلَ الْجَدِيدَ عَلَى الْمَقْدُودَةِ بَنَتْ الطَّاهِرَ الرَّسُولَ الزَّهْرَا جَاتِنِي كُودَا²⁰
ويقول في بيت آخر مادحا فاطمة الزهراء أيضا:

فَاطِمَا يَا شَبَاحَ الْعِيدِ جَبَتْ عَلَيْكَ قَوْلَ جَدِيدِ²¹

والحقيقة أنّ مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته والخلفاء الراشدين أخذت حصّة
الأسد في الاختيارات الموضوعاتية الدينية للشعر الشعبي المغربي، كيف لا والحديث فيها عن سيد
الأولين والآخرين محمد بن عبد الله مثل المؤمنين الأعلى وقدوتهم التي يتبعونها ويهتدون بمهديها.

4 - 3 - موضوعات الرجاء والتوسّل إلى الله ورسوله والأولياء الصالحين.

تُعَدُّ هذه المواضيع أيضا من أهم الموضوعات التي نظّم فيها الشعراء الشعبيون المغاربة،
ويتحقّق الرجاء والتوسّل عند "ارتياح القلب لانتظاره ما هو محبوب عنده، إن شئت قلت الطمع في
ما عند الله بشرط العمل في سبيل الوصول إليه"²²، وهو ضدّ اليأس والعجز عن العمل، وقد جاء
الشعر الشعبي المغربي الديني حاملا في قصائده معاني الرجاء والتوسّل إلى الله سبحانه وتعالى لنيل
المغفرة وابتغاء مرضاته من جهة، وإلى رسول الله (ص) والأولياء الصالحين تشفعا من جهة ثانية.

وقد ورد الدعاء والتشفّع في كثير من الأحيان بمثل صيغة: اللهم إني أسألك بجاه نبيك محمد

أو بجاه وليك الصالح فلان.. إلخ، يقول مثلا "ابن مسايب" في هذا الشأن:

مَنْ يَتَوَسَّلُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ

حَاجَتُهُ يَبْشُرُ مَقْضِيَةً إِذَا عَمَلَهَا حَقُّهُ يَرْضُوهُ

مَنْ يَتَوَسَّلَ بِهِمْ يُنَالِ فَرْحَ وَهْنًا حَتَّى الْوَصَالِ

ومن القصائد التي نجد فيها توسلاً بالأولياء الصالحين مثلاً قصيدة "كل يوم عليكم براح"

للشاعرة المتصوفة "نانا عائشة"²³ التي تقول في مطلعها:

كل يوم عليكم براح يا الصّالِح
يا رُجّال الله غيـثوني
قلت باسم الله باش بُدِيت
في كـلامي نَظـمي يـتـو²⁴

وتقول في أبيات أخرى متوسّلة واصفة الأولياء الصالحين بأهل الهمة والتّصريف والمجدوبين

والأسياد وغيرها من الصّفات المبالغ فيها، تقول مثلاً:

يا أهل الهمة والتّصريف
بينكم باغي نسـتـرا
يا شيوخي عالم والشريف
قاع فيكم درت النّغرا²⁵

وتقول في مقطع آخر أيضاً:

يا السّالـكين بالـكمال
بغيت فيكم قاع المـعـروف
يا المـجـدوبين أهل الحال
يا سيادي قلبي ملهوف²⁶

والمتأمل في هذه الشّواهد الشّعريّة (وغيرها كثير) يلتبس فعلاً ملامح النّزعة الصّوفيّة بارزة فيها

بشكل واضح وجليّ.

4 - 4 - موضوعات الزّهد والترفع عن الدّنيا:

يُعتَبَر الزّهد مرحلة انتقاليّة أدّت إلى ظهور مذهب التّصوف في القرن الثّالث الهجري، والتّصوّف - كما هو معروف - طريقة تعبّد كانت بداياتها انطلاقا من الزّهد الكلّي، والترفع عن ملاذ حياة الدّنيا ومتاعها، لتتطوّر فيما بعد وتأخذ اتجاهاً ومنحى آخر عُرف فيما بعد بالتّصوّف، وهذا يعني أن هناك نقاط تلاق بينهما من دون شك، لا يمكن تجاهلها رغم كل الاختلافات والانتقادات الموجهة إليهما معاً.

ولعل أهم ما تميّز به الشعراء المغاربة وخاصة المتصوفة منهم، هو موقف زهدهم من الحياة الدّنيا وترفعهم عن ملاذها وشهواتها؛ فقد بينوا ذلك في كثير من أشعارهم، مُعترفين بتقصيرهم تجاه الله تعالى، وإخفاقهم في تأديتهم للواجبات الدّينية كما يُحبّ الله تعالى، مُحترقين الدّنيا مُبَيّنين أنّ مصير الإنسان في النهاية هو الفناء لا محالة، وأنّه لا يدوم على هذه الأرض أحدٌ إلّا الله سبحانه وتعالى، داعين إلى العزوف عن ملاذ الدّنيا وشهواتها، ضاربين الأمثلة عن الأَقوام الماضية والأنبياء والرّسل والأولياء الصّالحين وغيرهم، ومن أمثلة شعر الزّهد نذكر ما نظمه الفقيه والشّاعر "سيدي عبد الحق البكري"²⁷ المعروف باسم "عبد الحق القاضي" في قصيدة "ما يدوم غير الدائم"، يقول الشّاعر في مطلعها:

مَا يُدُومُ غَيْرَ الدَّائِمِ كُلُّ مَا عَلَيْهَا فَا نِي سَبْحَانَ مَنْ لَا يُزُولُ مَا يَمَلُّ مَا يَنْسَانِي²⁸
ويقول في أبيات أخرى:

وَيَنْ دُوكَ اللَّيِّ خَلَاؤُ لَبَرًا قُصُورَ وَشَيْدُوا الْمَاءَ فِي الْحَسْيَانِي
مَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ وَالْدَّهْرِ مَعَ السَّنِينِ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ وَيَنْ كَانَ بَنَ كِنَعَانِي
وَيَنْ شَدَّادَ بَنَ عَادَ وَيَنْ رَامَ ذَاتَ الْعِمَادِ الْجَبَابِرَةَ فِي السُّودَانِ وَيَنْ كَانَ الْبِيزَانِي
قَوْمَ عَادَ وَثَمُودَ وَيَنْ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي قَيْصَرَ وَكِسْرَى مَا بَقَاتَ لِيَهُمْ جُرَا
كَامِلِينَ طَارُوا فَيَنْ الْحَدِيدَ الزُّمَانِي الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ وَيَنْهُمْ وَالصَّالِحِينَ²⁹

ونلاحظ هنا جيّدا أنّ الشّاعر يبدي تحسّره بشكل أو بآخر على مدى تفاهة الدّنيا مبيناً أنّ مصير الإنسان هو الفناء لا محالة مهما بلغ من رقيٍّ أو مكانة هامة في مجتمعه ضارباً الأمثلة عن الأَقوام الماضية (مثل قوم عاد وثمود)، والأنبياء والرّسل والأولياء الصّالحين والجبابرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا الفساد فيها (مثل فرعون وقارون).

4 - 5 - وصف الزمان والدَّهر ورحلة الدَّهَاب إلى البقاع المقدَّسة، ووصف الجَنَّة والنَّار:

تُعتَبَر موضوعات الوصف من المواضيع والأغراض الهامة الأكثر وروداً في ثنايا قصائد الشَّعر الشَّعبيِّ المغاربي أيضاً، وتأتي هذه المواضيع على نماذج مختلفة، كوصف الزَّمان و الدَّهر وأحوال النَّاس، أو وصف رحلة الدَّهَاب إلى البقاع المقدَّسة والعودة منها، أو وصف الجَنَّة والنَّار والقبر... الخ، ولا يسعنا في هذه الورقة البحثية الموجزة أن نمثل لكلِّ الحالات، وسنقتصر على ذكر بعض الشُّواهد فقط، تقول الشَّاعرة "نانا عائشة" في وصف النَّار من قصيدة "يا نفسي يهديك" التي تقول في مطلعها:

يا نفسي يَهْدِيكَ تُوبِي للغَمَارِ نُوصِيكَ وَنُوصِيكَ مَا أَعْظَمَ الْآخِرَا³⁰

وفي وصف نار جهنم تقول مثلاً:

كَحَلَا سُودَا خَانَزَا تَعْمِي لَبْصَارَ أَوْ تَرَهَّبَ لَعَقُولُ مَا تَعْطِي فَتْرَا
وَأَتَطِيبُ الْأَجْسَادَ بِالصَّهْدِ وَلَفَارَ يَا مَكْحَلْ دُخَانَهَا لِيَهْ أَمْرِيَا
الْعَذَابُ أَيُّصَبُ فِيهَا كَيَّ الْأَمْطَارَ وَالزَّفِيرُ عَلَى لِيَمِينٍ أَوْ لِيَسْرَا³¹

ومن الشَّعر الواصف لرحلة زيارة البقاع المقدَّسة لغرض آداء مناسك الحجِّ أو العمرة نذكر

على سبيل المثال لا الحصر قصيدة "باقي زوره زينة ولزياره نيّه" للشَّاعر: "أحمد خُذِير بن داود"³² الذي يقول في مطلع قصيدته:

يا رَبِّي يَا خَالْقِي يَا مُوَلَاي وَلَهْرَبِهْ مُحَالْ مِنْ غَيْرِكْ لُوِينْ
باقي زُورَه زِينَة وَلَزِيَارَه نِيّهْ وفرضْ دَلِينَا بَيْتْ رَبِّ الْعَالَمِينْ
بَعْدَ لِمَوْقِفْ تَلْحَقُوا سِيد رَقِيهْ وفي لَمَدِينَة سِيدَنَا صَاحِبْ جَبْرِينْ
مِنْ بَحْبَحْ وَدَعْنَا النَّاسَ كُلِّيّهْ وَنَفَيْتْ لَدُنْيَا وفَرَاقْ لُوَطْن الرِّينْ³³

ونلاحظ أن الشاعر يناجي - بِصِدْقٍ - في مستهلِّ قصيدته ربّه لاجئاً متضرّعا إليه، مودعا أهل

منطقته "مدينة بحبح بولاية الجلفة" ووطنه العزيز عليه "الجزائر".

5 - خاتمة:

من خلال كلّ ما تمّ التطرّق إليه نلتمس فعلا أنّ الشعر الشعبي المغربي يُعدّ من مقومات الثقافة الأدبية الشعبىة المغربية، وظاهرة أدبية فنية ثريّة، لا يمكننا تجاهلها في أيّ حال من الأحوال، لها أغراضها وخصائصها شكلا ومضمونا، ولها مواضيعها وقضاياها الخاصة بها، ومن أهمّ اختياراتها الموضوعاتية السياسية - على سبيل المثال هو الكتابة عن الثورات التحريرية الكبرى والمقاومات الشعبىة التي وقعت في المنطقة أثناء الاحتلال الفرنسي خاصّة، والتّغني بأبطالها وسرد أحداثها ووقائعها في قالب قصصي شعري (أخذ بُعدًا تاريخيا توثيقيا هامًا فيما بعد).

أمّا أهمّ الاختيارات الموضوعاتية الدينية التي نَظَمَ حولها الشعراء فهي: الحبّ الإلهي، ومدح الرسول "صلى الله عليه وسلّم" وصحابته وآل بيته، والتوسّل إلى الله ورسوله والأولياء الصّالحين، ومواضيع الزّهد والتّرفع عن الدّنيا، ووصف رحلة زيارة البقاع المقدّسة والعودة منها، ووصف الجنة والنار وغيرهما من المواضيع، وكلّ هذا التنوع في الاختيارات الموضوعاتية للشعر الشعبي وبساطة لغته كان له دور كبير في التأثير على الثقافة الشعبىة المغربية عُمومًا، بل كان بمثابة مرآة عاكسة لواقع المجتمعات المغربية واهتماماتها في مُختلف مجالات الحياة (ومنها السياسية والدينية التي سلّطنا الضّوء عليها قليلا) دُونَ تكلّف في المعاني ودُونَ تقيّد بالقوافي والأوزان الشعريّة الخليّة الصّارمة.

6. الهوامش:

- 1- ينظر.. التلي بن الشيخ ، دور الشعر الجزائري في الثورة من 1980 إلى 1945 ، دط ، 1977 ، ص395
- 2 - ينظر.. سالم بن لباد، تمثلات الشعر الشعبي لشخصيات سياسية: الشيخ بوعمامة، ابن باديس، عبد العزيز بوتفليقة، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2012-2013، ص20.
- 3- سعيد جاب الخير: العلاقة بين التصوف وشعراء الملحون، محمد بن مسايب أتموذجا، مجلة القدس العربي، لندن، انكلترا، أبريل 2007م ، ص96.
- 4- فاطمة مشعلة: مفهوم الشعر الشعبي، نقلا عن موقع: mawdoo3.com، تاريخ النشر: 04 سبتمبر 2016، تاريخ الاطلاع: 01 ديسمبر 2022م.
- 5 - ينظر.. خولة الفرشيشي: شعر الملحون في شمال إفريقيا: سلاح المقاومة ضدّ المستعمر، نقلا عن موقع: <https://meemmagazine.net> تاريخ النشر: 22 نوفمبر 2018، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 6- نفسه، تاريخ الاطلاع نفسه.
- 7- خولة الفرشيشي: شعر الملحون في شمال إفريقيا: سلاح المقاومة ضدّ المستعمر، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 8- نفسه: تاريخ الاطلاع نفسه.
- 9- ينظر.. منير عريوة: الثورة الجزائرية في الشعر الشعبي: قصيدة نوفمبر والثورة للشاعر الميولد على عريوة أتموذجا، نقلا عن موقع شبكة ضياء: <https://diae.net>، تاريخ النشر: 06 أكتوبر 2017، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 10 - خولة الفرشيشي: شعر الملحون في شمال إفريقيا: سلاح المقاومة ضدّ المستعمر، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 11- ينظر.. زيدان يوسف. شعراء الصوفية المجهولين. دار الشروق، القاهرة، مصر، ص129.
- 12 - هذه القصيدة مروية عن السيد عبد الله بوعزة أحد حفدة الشاعر.
- 13- سعيد بوعزة: شاعر شعبي من منطقة تيطاف التي تبعد حوالي 70 كم جنوب ولاية أدرار، ولد سنة 1904م ، وتوفي سنة 1982م.
- 14- ابن الفارض: هو أبو حفص شرف الدين عمر بن عليّ بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوّفين، ولد سنة (576هـ-1181م) بمصر، لقب بسلطان العاشقين، كان حسن الصحبة والعشرة، رقيق الطبع فصيح العبارة، توفي سنة (632هـ-1235م).
- 15 - البويصري: هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجيّ البويصري، اشتهر بالمدايح النبوية ، ولد سنة (608هـ-1213م)، من أهم مؤلفاته: الكواكب الدرّية في مدح خير البرية... توفي بالإسكندرية سنة (696هـ-1295م)
- 16 - ينظر.. زكي مبارك: المدايح النبوية في الأدب العربي، دار المحجّة البيضاء، القاهرة، مصر، 2015، ص17.
- 17- ينظر.. بخوشة محمد، كتاب الحب والمحجوب ، دار ابن خلدون، تلمسان، الجزائر ، 2004 ، ص70.
- 18 - ينظر.. عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص390-391.
- 19- محمد بن قيطون: شاعر جزائري ولد عام 1843 في مدينة سيدي خالد بولاية بسكرة، درس القرآن واللغة العربية في الزاوية المجاورة لبيته وهي زاوية سيدي علي الجروني التي ما زالت قائمة إلى حد الآن، كتب الشعر وهو شاب يافع باللغة الفصحى إلا أن شهرته في الشعر الشعبي كانت أوسع، توفي عام 1907م.
- 20 - ينظر.. عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص426.

- 21- المرجع نفسه، ص 426.
- 22- ينظر.. محمد عبد العزيز سيدي أعمار، مفتاح العلوم بكل ثلاثة من أنواع الفهوم، التوحيد والفقه والتصوف، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، دط، 1998 م، ج 2، ص 191
- 23 - نانا عائشة: شاعرة شعبية من منطقة توات بولاية أدرار الواقعة جنوب غرب الصحراء الجزائرية، نظمت حوالي 110 قصيدة شعبية حسب ما يروي عنها حفدها.
- 24 - هذه الأبيات وما بعدها من شواهد والقصيدة كاملة موجودة في مدونة خاصة بـ (السيد محمد جعفري بودة) حفيد الشاعرة "نانا عائشة" بمسقط رأسها (منطقة توات).
- 25 - المرجع نفسه.
- 26 - المرجع نفسه.
- 27 - سيدي عبد الحق البكري: أحد أبرز علماء ومشايخ منطقة توات بولاية أدرار، توفي وهو محرم في صلاة الصبح سنة 1220هـ.
- 28- هذه القصيدة موجودة مخطوطة كاملة في مكتبة الزاوية القادرية بمنطقة توات، وهي إقليم يقع في الجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية، على اطراف العرق الغربي الكبير بالتحديد في ولاية أدرار، ويسكن توات أعراق مختلفة من عرب وأمازيغ وحراطين ومن أصول أفريقية كما سكن بالمنطقة طائفة يهودية خلال التاريخ القلم والعصور الوسطى خصوصاً بتمنيط.
- 29 - المرجع نفسه، والمقصود بكلمة "الحسياني" الواردة في البيت الأول هو: الآبار، ومفردها الحاسي، وهي كلمة متداولة في الجنوب الجزائري بكثرة.
- 30- هذه القصيدة موجودة أيضا كاملة في المدونة الخاصة بـ (السيد محمد جعفري بودة) حفيد الشاعرة.
- 31 - المرجع نفسه.
- 32- أحمد خذير بن داود: شاعر جزائري مولود سنة 1884م ببادية حاسي بجيج المعروفة باسم الخزة، عاش حياة بدوية كفلاح ينتقل بين الأرياف في رعي الاغنام وتربيته وزراعة الارض وحرثها والاستزاق، كان والده شاعرا وابنه شاعرا أيضا، توفي سنة 1956 بحاسي بجيج بولاية الجلفة.
- 33 - قصيدة "باقي زوره زينّة ولّزّاره نيه": للاطلاع على القصيدة ينظر.. خذير عبد الرحمن: تحفة الزهد في قوال الشعر الشعبي <http://www.aswat-elchamal.com>، تاريخ النشر: 04 سبتمبر 2013، تاريخ الاطلاع: 25 ديسمبر 2022م.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- التلي بن الشيخ ، دور الشعر الجزائري في الثورة من 1980 إلى 1945 ، دط ، 1977 .
- 2 - سالم بن لباد، تمثالات الشعر الشعبي لشخصيات سياسية: الشيخ بوعمامة، ابن باديس، عبد العزيز بوتفليقة، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2012-2013.
- 3- سعيد جاب الخير: العلاقة بين التصوف وشعراء الملحون، محمد بن مسابب أنموذجا، مجلة القدس العربي، لندن، انكلترا، أفريل 2007م.
- 4- فاطمة مشعلة: مفهوم الشعر الشعبي، نقلا عن موقع: mawdoo3.com، تاريخ النشر: 04 سبتمبر 2016، تاريخ الاطلاع: 01 ديسمبر 2022م.

- 5 - خولة الفرشيشي: شعر الملحنون في شمال إفريقيا: سلاح المقاومة ضدّ المستعمر، نقلا عن موقع: <https://meemmagazine.net> تاريخ النشر: 22 نوفمبر 2018، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 9- منير عريوة: الثورة الجزائرية في الشعر الشعبي: قصيدة نوفمبر والثورة للشاعر المبلود على عريوة أنموذجا، نقلا عن موقع شبكة ضياء: <https://diae.net>، تاريخ النشر: 06 أكتوبر 2017، تاريخ الاطلاع: 03 ديسمبر 2022م.
- 11- زيدان يوسف: شعراء الصوفية المجهولين. دار الشروق، القاهرة، مصر، دت.
- 16 - زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، دار المحجة البيضاء، القاهرة، مصر، 2015م.
- 17- بخوشة محمد، كتاب الحب والمحجوب ، دار ابن خلدون، تلمسان، الجزائر ، 2004م.
- 22- محمد عبد العزيز سيدي أعمر، مفتاح العلوم بحل ثلاثة من أنواع الفهوم، التوحيد والفقه والتصوّف، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، دط، 1998 م، ج2.
- 33 - قصيدة "باقي زوره زينة ولزياره نيه": للاطلاع على القصيدة ينظر.. خذير عبد الرحمن: تحفة الزهد في قوال الشعر الشعبي <http://www.aswat-elchamal.com>، تاريخ النشر: 04 سبتمبر 2013، تاريخ الاطلاع: 25 ديسمبر 2022م.